

نقد النقد

د. عبد المجيد
قسم العربية
كلية مهاراجاس
إرناكلام

مصطلح جديد عند العرب ، التأليف والمساهمات في تأسيس مبادئ نقد النقد وقواعده قليلة في المدونة النقدية العربية الحديثة . أهمية نقد النقد ، وشرعية وجوده مستقلا عن النقد ، وتحديد وظيفته ومقاصده موضوع يجدر النقاش .

وتتداخل في 'نقد النقد' مباحثٌ عديدة متعلقة بالخلفية الفكرية والنظرية والمنهجية . حقا ؛ ومن الصعب بل مستحيلٌ الإحاطة بها في مقال واحد، لذا نضطر إلى حصر الاهتمام في المبحثين:

المبحث الأول : محاولة التعريف بنقد النقد وتطوره في مختلف العصور،

وإن لنقد النقد علاقاتٍ بتاريخ تطور النقد، والنظرية الأدبية ، والتعريف بالمناهج ، وتطلق عليه تسميات أخرى من قبيل " النقد الشارح " و " قراءة القراءة " و " نقد القراءة " و " القراءة النقدية الواصفة "

يقول الباحث نعيم اليافي : النقد يحتاج إلى نقده حاجة الإبداع إلى الإصلاح والنقد . في قول أدونيس : تعتبر " جمالية " أو " أدبية القراءة " نوعا من نقد النقد .

يقول عبد السلام المسدي : يستحسبك نقد النقد أن تهتك الحجب والأستار فتتفد بعين التبصر وروح الاعتبار إلى حيث يغيب بصر الآخرين .

ومن هذا التعريف الجامع نقف على أن 'نقد النقد' أو 'ما بعد النقد' (metacritique) فن يسهل القراءة النقدية والتذوق، وفن يسمح للقارئ بتعدد الاجتهادات، والتأويلات، حسب اختياره وقدرته على التفسير والتحليل والتعليل . ونفهم أيضا أن محور 'نقد النقد' هو فلسفة النقد ، ومقاصده ، فيراجع مصطلحات النقد ، وبنية المنطقية ، ومبادئه الأساسية، وفرضياته التفسيرية، وأدواته الإجرائية .

وتدل الإحاطة بتعريف نقد النقد على أن الأوائل قد مارسوا نقد النقد من دون معرفة لمصطلحاته وقوانينه والحدود الفاصلة بينه وبين النقد. وإن نقد النقد في صورته القديمة قد ترافق النقد خطوة بخطوة ، فتدخلا كأن لا فرق بينها ولا فاصل . ويمكننا الاستدلال على هذه بكتاب واحد في النقد ، ذلك ، 'المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر' لابن أثير المتوفى سنة ستمائة وثمانية عشرة الهجرية - نهض لنقده ناقدان ، هما ابن أبي حديد، والصفدي ، يخطئان ابن الأثير، وتعاضد كلاهما على التشهير بجهل ابن الأثير . ثم نهض ركن الدين أبو القاسم الاصبهاني ، وعبد العزيز عيسى، ونقدا كتاب ابن أبي حديد والصفدي وينتصران لابن الأثير .

ومن قبيلة " نقد النقد " اعتذار النقاد عن نقدهم في المستقبل ، وتركهم بعض المعايير واقفين على دعواهم الباطلة، استدلالا على هذا النوع نطلع على مساهمة المحافظين في الأدب بعد نهوض العرب من سبوتهم الطويل ، ونطلع إلى ما واجهوا من نقد عنيف .

ومما لا يماري فيه اثنان أن جهود المحافظين وإنتاجهم الأدبية نداء بأصداء ماضٍ مجيدٍ من موروث الثقافة العربية ، ومع ذلك أظهر العقاد والمازني وبعض المعاصرين - على ضوء معاييرهم النقدي - ما في أدب المحافظين من تفكك وإحالة، وتقليد، وأهم ما أخذوه على الشعر التقليدي أنه يفنق الوحدة العنصرية للقصيدة ، وهاجموا على الأغراض التي تدور حولها ، والأساليب البلاغية التي تحكم أسلوبها . ونشعر الآن بالخجل ، ونحن نقرأ هذا النقد الطافح بالأخطاء ، والتحامل ، والسباب الشخصي .

وإذا كان طه حسين قد تحامل على المنفلوطي فقد وجد من ينتصف له ، ووجد تقديرا عاليا من الذين جاءوا بعد رحيله بقليل ، ووجد أحمد شوقي على الرغم من هجوم العقاد المتواصل والعنيف دفاعا حارا ، وتقديرا عاليا من جلة النقاد على أيامه ، ومن كافة الشعراء ، وبايعوه أميرا عليهم بالإجماع .

ومن الحقائق التاريخية التي لا غبار عليها ،اعتذر الدكتور طه حسين بعد نصف قرن من الزمان عن النقد العنيف والسخيف الذي وجهه إلى المنفلوطي .

وإن هاجم العقاد أمير الشعراء أحمد شوقي ، وحالت كبرياؤه المعهودة أن يعود إلى فضيلة الحق ، أصلح العقاد موقفه في مقاله " بعد الأعاصير " وصار بعد انحلال مدرسة الديوان ناقدا يتسم بالإنصاف ، فكتب نفسه :
" سمعوا أن الناقة والأطلال ... باب المديح والثناء ... كلها حرام على المعاصرين ... وهذا جميعه ضلال عن معنى النقد في الأدب الحديث "

والمبحث الثاني: نقاش انتقادي حول مقاصد فنون الأدب ونقدها عند العرب والغربيين قديما وحديثا، وأهدافها المنشودة عند أصحاب المدارس الأدبية المختلفة، وأصحاب مدرسة الفن للفن . .

أولا وقبل كل شيء نشير إلى أن الفلاسفة والعباقرة في كل عصر ومصر حللوا عناصر الأدب ونقدوه ونجد بعض محاولة نقدية عبر التاريخ لاستئصال جرثومة الأدب ، وهدم كيانه ، هنا لعب نقد النقد دورا بارزا لحفظ الأدب خصوصا الشعر .

ولقد هاجم بعض الفلاسفة على الشعر وأنكروا النفع في الشعر ، ونسبوا إليه جريمة بث الأساطير والخرافات وقتل الوقت ، وتضييع الزمان . فكان أول من هاجم على الشعر أفلاطون (٤٢٨-٣٤٨ قبل الميلاد) في كتابه Republic ، نقد تلميذه أرسطو (٣٨٤-٣٢٢) دعواه ، وأجاب لأستاذه ، وذلك في كتابه Poetics ثم هاجم الشعر ونفعه ستيفن غوسن (١٥٧٩) في كتابه The school of Abuse ،نقده سر فليب سدني (١٥٩٠) (وألف An Apology of poetry ، ثم قام تومس بيكوك بنقد الشعر والشعراء ، وذلك في كتابه The four ages of Poetry فأجابه شلي (١٧٩٢-١٨٢٢) وألف A defense of poetry

طبعاً ؛ كلما واجه الأدب من التحديات، والنقد في كيانه دفعها العباقره، وحفظوا الأدب ، وبذلوا في ذلك السبيل جهدهم ، فكان الأدب وفقاً لتعريفهم: عصاره النفوس والقلوب والعقول وصور للإنسانية ، لا تحذق تصويره، إلا اليد الصناع الماهرة ، ولا تجيد ألوانها ، إلا ريشة الفنان الملهم .

أشار أرسطو إلى وظيفة الشعر وأثبت مذهبه ، Catharsis وأوضح أن هدف الأدب " الحفظ على توازن النفس بعد تطهيره من الأرجاس " .

وجاء سدني بنظريته Poetic Justice فقال "إن هدف الشعر التسلية والتربية والتثقيف " ألزم شلي الروح الإبداعي في الشعر ، وقال الشعر كنز المعلومات ، وقال كل من يولد المعاني والمباحث الجديدة، ويحيي القيم هو الشاعر حقا ،

يقول ماتو أرنولد : الأوليه للمضمون ، والشكل مثل اللباس ،

يقول ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) " الأدب فرع من الثقافة "

يقول إنجلز: أكره إعلان الغاية في العمل الفني ، وأرى أن تظل مخبأة "

سمعنا اهتمام بعض العباقره والمفكرين بالأدب ، واقتراحاتهم ، فالأديب من يعبر عن تجربة حياته مباشرة على أساس التقنيات التعبيرية ، وواجب أن يكون صدوقا في عاطفته.

أكيدا، قد تطور الفن في بعض العهود والفترات تطورا بعيد المدى ، فأتى فريق ببهتان عظيم ، وجاهدوا لتبديل الأدب من أخصص قدمه إلى قمة رأسه ، ونقدوا الأوائل وتركوا المعايير النقدية التي اعتمد عليها القدماء. هم أصحاب مدرسة " الفن للفن " *art for art's sake*

مصدر هذه الحركة ، هي الفلسفة الجمالية لكيترز ، وضع أساسها الفيلسوف، في القرن الثامن عشر، عمانوئيل كانت (Kant) الذي أكد على أن الجمال غاية تقصد لذاتها، ليس وسيلة لأي غاية أخرى، تأثر أصحاب هذه الحركة بتيوفيل غوتيه (Theophile Gautier) وشارل بودليير (Charles Baudelaire) وغيرهما من الكتاب والفنانين الفرنسيين.

رفع لواءها أولا في الأدب والنقد سينبون (Swinburne) ، ولكن رجع من دعواه سنة ألف وثمانمائة واثنين وسبعين (١٨٧٢) وقال الفن أولا للفن وتأتي الأغراض كلها وراءه "

ثم جاء وأوسكار وايلد (Oscar Wilde) يقول " الفنان حر في تصوير الجمال أو خلقه من غير اعتبار للأخلاق وبصرف النظر عن النتائج الاجتماعية... "

وكان من دعواه أيضا : الفنون عديمة الفائدة جدا

arts is quite useless

دقة المواعيد لصحة الوقت

punctuality is the thief of time

كلّ اندفاع الذي نجاهد لخلقته يتورم في النفس ويسمّنا

Every impulse that we strive to strangle broods in the mind and poisons us

جاء بدعوى غريبة جده ، وحض الناس على أن يعيشوا كالأنعام

فسجنه الملكة فيكتورية سنتين ، على الرغم من بشاعة ما دعا إليه انضم إلى هذه الحركة بعض الأدباء المعاصرين ، أما الأدباء العرب مثل رشاد رشدي وتفيق الحكيم فكانوا يهتمون بالجمالية ، ويرون أن الفن ليس من الضروري أن يكون له غاية اجتماعية أو سياسية أو دينية

أو غير ذلك، إنما هدفه الأول أن يكون فنا جميلا فحسب.

المسارعة والعجلة من قبل بعض الأدباء العرب لاتباع الغربيين شبرا بشبر، في عناصر الأدب، ومعايير النقد، والجهد لحفظ وحدة العنصرية، والتصنع في التشخيص، وتجميل الشكل، واللجوء إلى الأيقونات والرموز، كلها شوه الشعر العربي، والنقد العربي. ومن الجدير بالذكر أن نقد النقد بمرافقته الأدب والنقد أنقذ الأدب العربي من التدهور والتفاهة وحفظ أصالته، فإننا نجد في عصرنا هذا اتجاها جديدا في الأدب والنقد العربي، وذلك اتجاه محمود مقبول، أصل هذا الاتجاه المزج بين المناهج، من أمثلة هؤلاء الأدباء؛ حمد الحمد وهو من أبرز أدباء الدولة الكويتية، وهو كاتب قصة القصيرة والرواية، وله مساهمة كبيرة في الصحافة، يشغل الآن منصب أمين رابطة الأدباء في الكويت. من أمثلة النقاد والباحثين المازجين بين المناهج؛ الباحث كمال أبو ديب، اصطنع منهجا مركبا من التحليل البنيوي والتحليل النفسي والوصفي واللغوي والشكلي والماركسي الجدلي وذلك في كتابه الرؤى المقتعة. نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي. والباحث جورج طرابيشي في كتابه "الأدب من الداخل" ويذكر فيه أنه اعتمد "تحليلا نفسيا وماديا وبنويا وجماليا وذوقيا" هذا هلال مستقبل، طبعاً؛ نرحب به. مع السلامة.

المصادر والمراجع

- ١ . النقد والنقد ، محمد الدغمومي.
- ٢ . الرؤى المقتعة ، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي. الباحث كمال أبوديب
- ٣ . النقد والحدائث، عبد السلام المسدي..
- ٤ . الأدب من الداخل ، الباحث جورج طرابيشي
- ٥ . بعد الأعاصير ، عباس محمود العقاد
- ٦ . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن أثير المتوفى سنة ستمائة وثمانية عشرة الهجرية.